القُدسيُّ والظاهرةُ الدينيّةُ عند رودولف أوتو

جورج خوّام البُولُسيّ

إذا كانت غايةُ فلسفة الدين تفسيرُ الدين بما هو ظاهرة، بُعدُها الأساسيُّ إنسانيّ – جوانبه نفسيّةٌ واجتماعيّةٌ وتاريخيّة –، من خلال مراعاة الموضوعيّة والاستدلال المنطقيّ، فإنّ رودولف أوتو خرج عن إطار فلسفة الدين عندما لم يقصُر بحثَهُ على الظاهرة الدينيّة وتخطّاه ليُعالجَ ظاهرة التبليغ، وخرج عن إطار نفس الفلسفة عندما، في إصراره على مُراعاة حدِّ التسامي الذي يلبث فيه المُطلق، اعتبرَ أنّ في الدين عنصرًا يتأبّى القبضَ العقلانيَّ هو القُدسيّ. القُدسيّ، إذًا، عنصرٌ مُكوِّنٌ للدين إلّا أنّه عنصرٌ غير عقلانيّ، لا يملك الفيلسوف أن يُفسِّرَه، بل أن يقفَ أمامَهُ برهبة.

توطئة

بعد أن تناولَ الفلاسفةُ الكونَ بأرجائه الرحبة موضوعَ تفكير، والطبيعةَ بمناحيها المختلفة، والإنسانَ بمركّباته، محطَّ تنظير وتحليل، دَفَعَهُم فضولُهم إلى إعمالِ فكرِهم في غير المحسوس، وإلى ولوج عالم المفاهيم والقِيَم والكينونة بحثًا عن علّاتها وعلائقها، علّهم يضعون تفسيرًا لمجريات الأحداث التي تكتَنِفُ هذا «الغريب»، أعني به الإنسان. ثمّ أوغلوا شأوًا أبعدَ ممّا صاروا إليه في بحوثهم، عندما وقفوا بإزاء العلّة التي تُفسّر العللَ جميعًا، من غير أن تُفسِّرَها علّة؛ فأكبّوا على استيضاح سطوة الله، المتعالي والمتسلّط، كيف تنسلُّ إلى حيّز الكائن في برهة «فطريّة»، وكيف تلبثُ فيه مُدويّةً، وحافزةً أبدًا إيّاه على فعلِ كذا أو كذا. فنشأت مذاهبُ ومدارسُ تتباين فيما بينها، على حَسَبِ تبايُنِ رُؤاها وحُججها. وانقسمَ المفكّرونَ فرقًا تتنازعُ الصواب، على وفق الحدس الذي يستند كلٌّ منها إليه، أو على مقتضى النزعةِ التي يبلونَ في إعلانها، فيما هم يسُطُون مقولاتهم.

أُطلِقَ لفظُ «فلسفة الدين» على المنظومات الفكريّة التي جهِدَت في تفسيرِ الظاهرة

الدينيّة بصورةٍ عامّة؛ وأريدَ به مبحثًا نظريًّا يُفصِّلُ في استبيان الأحاسيس، التي تُهيّئ الكائنَ لتقبُّلِ الوازعِ الدينيّ. إنّنا نبغي، في هذه السطور، إلقاءَ الضوء بعجالةٍ على الحدود التي يجري ضمنها البحث، وإبرازَ المجال الفكريّ الذي يدور فيه.

١. حدودُ البحث

يُبيحُ ناظمُ القصيدة لنفسه أن يُبالغَ في الوصف إذا أُخِذَ منه العُجُبُ أشدّه أمام لوحة فاتنة، وأن يُخالفَ بعضَ الشيء في القواعد، إذا اضطرَّهُ النظمُ إلى ذلك، ولا حَرَجَ عليه أن يقرُضَ الشعرَ مدحًا، أو وصفًا، وأن يميلَ به إلى الحكمة والنُّصح، أم إلى النقد، أم إلى الوجْد. إنّه يُعَدُّ، عند العامّة والخاصّة من أهل الأدب، شاعرًا، رغم تجاوزاته كلّها. ولكنّ الأمر ليس كذلك، بالنسبة إلى الفيلسوف، الذي يَفرِض عليه قولُه أن يبتغي الدقّة والوضوحَ، والعمق والشرح، والتسلسل والتحليل. لا يمكنه كَساء مقالته صورًا، أو تجاوزَ حدودِ القواعد في تعبيره عن بنات أفكاره. إضافة إلى هذا، ليس في مقدور الفيلسوف أن يدّعي تنظيم حياة الفرد الخاصّة، إذا ما تكلّم على الإرادة، أو إذا تناول بالتحليل والشرح نموّ العادات، وولوجَها بنيانَ الكائن البشريّ، منذ نعومة أظفاره. فالفيلسوفُ امرؤٌ ذو بصيرة نافذة، وحكيمٌ ذو طاقة على فكِّ الرُبَط العديدة، التي تجمعُ المفاهيمَ بعضَها إلى بعض، ونبيهٌ يسمحُ له عقلُهُ أن يرى من الواقع ظاهرَهُ، وباطنَه، ومآلَه، ومنبعَه، عبر سلسلة من التحاليل والاستنتاجات. وليس في مقدورِهِ حتّى الاعتقاد بتجاوز حدود المعرفة إلى ميادين الأسرة، مثلًا، أو الآخرة، أو التشريع، فيزعم أنّه يرى خير السبل إلى تأسيسها، والتعليم في ما من أمرها.

٢. تحديدُ المبحثِ العلميّ

هذا ما يمكن الأخذ به، بالواقع، عند النظر إلى «فلسفة الدين». فالفلسفةُ التي تختصُّ الدينَ بها مبحثًا يقول فيها الحكماء كلمتَهُم بناءً على ما يلتمسونه في نشوء الدين، فتُدعى فلسفتُهم «تاريخَ الأديان»، أو بناءً على ما بَنَتهُ في النفس البشريّة، فتُدعى «علم النفس الدينيّ»، إلى ما سوى ذلك من قبيل «علم الإنسان الدينيّ»، أو «علم الاجتماع الدينيّ». إنّها، كفلسفة، تهتمُّ بتتبّع الظاهرة الدينيّة على امتداد التاريخ، أو في ثنايا الغرائز وطبقات الشخصيّة، وتسعى وراء إبراز وجوهها، وسيماءِ حضورها الفارقة، وأثرِ العوامل الخارجيّة والداخليّة في تكوينها؛ بل لا يقف النظام، الذي تتألّفُ منه الظاهرة الدينيّة برمّتها، حائلًا دون تقدُّم النظريّات والتحاليل في طريق تفسير البناء الدينيّ. إنّ العقائد، مثلًا، والشرائع، والشعائر،

والابتهالات، عُمُدٌ صـلدة، تؤلِّف معًا بتداخلٍ متناسـقٍ ومحكـم البنيان، صرْحَ ذاك النظام. ومن حيث كونُها عُمُدًا، تمسـي موضـوعَ بحثٍ بالنسـبة إلى الفَيلسـوف، فيطرُقُ حَرَمَها كمُنقِّـبٍ فيهـا، لا عن الـتراث الروحيّ التـي تختزنه دفينًـا في طيّاتها، وإنّما عـن العناصر المعنويّة، والنفسـيّة، والتاريخيّة، واللغويّة، والتعبيريّة، التي تمكِّنُه من تفسـير الدين. إنَّه ينظر إلى الإيمـان نظرَتَـهُ إلى موقفٍ يقوم امروٌ باتّخاذه في سُـبُل الحياة، بإزاء ما يطرأ عليه فيها، ثمّ يسعى إلى تحليل ذلك الموقف: منشئه، ونموّه، وعناصره المكوّنة إيّاه، وتفاعله، وآثاره المباشرة والجانبيّة، إلخ. ويرى إلى العقائد رؤيَتَهُ إلى دستور، يُنظِّمُ جوانب جماعةٍ من الناس، فيدرس أيضًـا الآفاق الثقافيّة، التي تتطلّع إليها تلك الجماعة، من خلال ما تتمسّـكٍ به دستورًا لها. وموجز الكلام أنّ الفيلسوف، الذي يجعل من الدين موضوع دراسة، يهتمّ لبعده الإنسانيّ، ولعلاقته بوجود الفرد في معترك الحياة، وللطاقة النفسيّة (لا الروحيّة) التي يزخر بها، ويشّها بدون هوادةٍ في قوى الكائن البشريّ ومداركه وقراراته.

٣. حدودُ مبحثِ «فلسفة الدين»

يسـتطيع المفكّر في ظاهـرة الدين أن يقارب عناصرَها كناقدٍ محلّل، أو كعالمٍ في أمور النشـأة البشريّة، وتطوّرها، وصُـنعِها كيانَها الحضـاريّ، معتمدًا على علـوم أخرى، كعلوم النفس والاجتماع والآثار والإنسـان القديم. في هذا الإطار من مبحث «فلسـفة الدين»، يمكنه أن يقـدّم بحوثـه، وأن يَفيدَ من مقارنة الأديـان عمومًا، ومن مقارنة أديان موطنيّة خصوصًـا. وكلّما لزم موضعَهُ العلميَّ هذا كسب من دروسه منـزلةً رفيعة، لأنّ تجاوزَهُ المجالَ المخصّص له يفقده إيّاها.

ولكنّ السـؤال الذي لا غنى عن طرحه، في ما من أمرِ الحدود التي يجب على المُـفكِّر في ظاهرة الدين الوقوف عندها، ومن ثمّ عدم تجاوزها، يحتِّمُ علينا بلا مراء أن نتلمّس تلك العناصرَ الدينيّة، التي تفلت من اعتباره إيّاها، من حيث كونُهُ ناقدًا محلّلًا، أجزاء من الظاهرة! فقد عدّ رودولـف أوتو (١٨٦٩–١٩٣٧) Rudolf Otto 'القُدسـيَّ' عنصرًا مكوِّنًا للدين، وتناولَـهُ بالتحليـل مـن زاوية الاعتبار هذه. ولكنّه رأى فيه – وقد أصـابَ في مـا رآه – أنّه يتضـمَّنُ عنصرًا غيرَ عقلانيّ، يسمو على العنصرِ العقلانيّ، فاكتفى بالتمعُّن في تحليل الأخير، في استكشاف 'طبيعة' الأوّل. إنّ ما ليس عقلانيًّا، إذًا، أي ما يبقى قائمًا في حدّ ذاته صامدًا أمـام محاولات العقل كلِّها في تفسـيره، من غير أن يناقضَ مع ذلك موجبات العقل، يمسـي حدًّا يقف عنده فيلسـوفُ «الظاهرة الدينيّة». وهذا اللاعقلانيّ، وأعني به ما يتخطّى ما هو

عقلانيّ، ذو الطبيعة القُدسيّة، سابقٌ في وجوده وحركته وفعله، حتّى إنّ العقلانيَّ منه دالٌّ عليه طرًّا، من دون قدرة يحوزُها لكي يرقى إليه بالتحليل والعقل. أمّا من تجاسر من الفلاسفة على القفز بالعقل والتحليل صوب ذاك الجانب غير العقلانيّ فأخفق، لا في محاولته التفسير والعقل، وإنّما في إضفاء طابع الحكمة والرفعة والبصيرة المستنيرة على مقولاته، التي أتت هذَرًا. والحقُّ يقال، أتت أبحاث أولئك كلّهم نفيًا للشيء، لا قولًا فيه، وإنكارًا لوجوده.

على صعيد آخر، تقوم منهجيّةُ «فلسفة الدين» على استخراج عناصر الظاهرة الدينيّة، النفسيّة والاجتماعيّة والتاريخيّة، من الممارسات التَّقَويّة على أنواعها؛ ومن التحديدات العقائديّة التي يجدها الفيلسوف الناقد أمامه، ثمّ على إلقاء الضوء عليها حتّى ينجليَ سببُ انضواء امرئٍ تحت لواء التعلُّق بالكائن الأسمى. إنّ هذه المنهجيّة «الفلسفيّة» جائزة طالما سلك فيها صاحبُها متقيّدًا بحدودها، أمّا إذا تخطّى هذه الأخيرة، كأن يشرَعَ مثلًا في استخراج معاني النصِّ الدينيِّ، بناءً على صور مفاهيمه الفلسفيّة، أو أن يبدي حُكمَهُ فيه على وفْق مواءمته أو مجافاته لأحكام ورؤى، ثبّتها له تحليلُهُ أفكارًا «دينيّةً» أخرى، فإنّه يرتكب هفوةً منهجيّةً، لا تجيزُ لهُ من بعدُ أن يُقدِّمَ عمله، أو بحثه، كأنّما هو عملٌ، أو بحثٌ، جدير بالاعتبار. إنّ بعض الدراسة التي انهال بها أوتو على نصوص الكتاب المقدّس تُذهب هذا المنحى الأخير؛ ومهما بدت النتائج التي بلغ إليها، من جرّاء ذلك، باهرةً، تبقى المنهجيّةُ التي يعتمدها مُخلّةً في أحد جوانبها، إذ لا تأخذ بمنهجيّة القراءة التفسيريّة العلميّة.

٤. الأسلوب والنتائج

انطلاقًا ممّا سبق قوله، يمكننا أن نخلُصَ إلى استنتاج حدَّين لهما شأنٌ ودورٌ في بقاء «فلسفة الدين» قائمةً كعلم جائز: الأوّل حدُّ التسامي الذي يلبَثُ فيه القُدسيّ، والثّاني حدُّ المنهجيّة القويمة، التي ينبغيَ التحلّي بها عند مقاربته. لا يمكن للفيلسوف أن يفضي إلى استخلاص نتائج لا تتّفق والحدَّ الأول؛ كما لا يمكنه، كذلك، أن يستخدم أسلوبًا ينافي الحدَّ الثاني من أصول التحليل المنطقيّ، وارتباط العلّة بالنتيجة، والكشفِ عن المعاني والمغازي، والبرهان بالحجّة الدامغة، والموضوعيّة الواثقة، والاستدلال والاستقراء، والتفنيد، والقياس، والتجربة. ومن شأن فيلسوف الأديان أن يطرُقَ بابَها مستعينًا بهذه الأصول، بتؤدةٍ وجرأة، ومطبِّقًا إيّاها على الظواهر الدينيّة المختلفة، وغرضه منها لا التفسير الذي ينبش النصوص المقدّسة، وإنّما فهم المقوّمات النفسيّة، والاجتماعيّة، والتاريخيّة المشار إليها آنفًا، وغيرها كذلك، التي لعبت دورًا حاسمًا في بناء صرح الظاهرة الدينيّة، وفي استمرارها كظاهرةٍ على امتداد

أجيالٍ وأحقاب. إنّ النتائج، التي تفضي إليها الأبحاثُ السالكةُ في طريق التحليل، تُصنَّف، في فلسـفة الدين، إمّا «ماديّةً، أي وجوديّةً–إنسـانيّة، وإمّا «دينيّة»، أي كيانيّةً–ميتافيزيقيّة. الأولى لا ترى في الدين قُدسـيّة يمكنها أن توجَـدَ بذاتها، وإنّما ترى في الأفاهيم الدينيّة كلّها تعبيرًا وصـدىً لأغوار النفس البشريّة، ولثقافات الشعوب. أمّا الثانية فتَعتبرُ الظاهرةَ الدينيّةَ نفسَـها صـدىً وتعبيرًا لأفهوم مسـتقلٍّ بذاته وكيانه، على وفق ما ذهب إليه أوتو في تحليله فكرةَ القدسيّ، أفهومٌ لا يمكنه أن يُبْلَغ إليه إلّا بجهد النفس، والاختبار غير المحسوس.

مـن جهةٍ مقابلة، يتوخّى فيلسـوف الأديان عدم الخلط في مقارباته بين أسـاليب بحثيّة مختلفة، مجتنبًا الادّعاء الفارغ بالقول الفصـل، والانحيازَ المقيت إلى موقفه الشخصـيّ. ليس فيلسـوفُ الأديان مؤرّخًـا دينيًّا، ولا مفسّـرًا، ولا معلّمًا فقيهًا، ولا مفتيًـا، ولا داعية، ولا مربّيًا، ولا متصـوِّفًا. ولئن كان على شيءٍ من هذا القبيل، فإنّما هو كذلك بأسلوبه، والطريقة التي يبسُـطُ فيها القولَ عند حديثه عن الأديان؛ إلّا أنّه، بالتأكيد، ليس هو وقتَئذٍ بفيلسوف. فالأسـلوبُ إذًا، الذي يعتمدُه فيلسـوفُ الأديان، لا يسـتوي أسلوبًا فلسـفيًّا، إذا برح نمطًا ومنهجًـا معيّنين، إلى نمـط ومنهج آخرين. إنّه، حينَئذٍ، سـوف يفقد مصـداقيّته العلميّة، إذ يفضي إلى نتائج لا يقتضيها البحثُ بالضرورة.

٥. نقدُ الفلسفةِ الدينيّة

يتّسـع مضـمار الفلسـفة الدينيّة، وتتفاوت المقاربات التي تجري داخله، قـدرًا كبيرًا، على حسـب الاتّجاه، أو الاهتمام الفلسـفيّ عند المفكّر. فقد يميل هذا إلى دراسة الظاهرة الدينيّة كممارسـات، أو كمواقفَ خارجيّة لدى أتباع ديانة من الأديان، وكتعابيرَ حياتيّة محسوسـة في العالم، ومُدْرَكة بقناعة أم بغير قناعة، وبفهم أم بغير فهم، عندهم. وقد يكُبُّ على دراسة تلـك الظاهرة عينها، من حيث إنّها مُركَّبٌ وجوديّ، يتّخـذ موقعَهُ في الجِبلّة البشريّة، على غرار سـائر المُركَّبات، كالعاطفة وغريـزة حبّ البقاء، إلخ. وثمّة اتّجـاهٌ ثالث، فرابع، يمكن المفكّر أن يسير به، فيما يُتمُّ دراسَته الظاهرة الدينيّة.

لا ريبـةَ في أنّ هذه الاهتمامات الفلسـفيّة المختلفة والمتنوّعـة ذات وجه علميّ؛ ولكنّ الريبة تنسـاب إلى فكرنا في صـحّة، أو في دقّة، القولِ بأنّ هذه الفلسفة «دينيّة». إنّنا نعتقد أنّ مصطلح «فلسفة الدين» لا يُعبِّر عن استيفاء النشاط الفكريّ، الذي يتّخذُ الدينَ موضوعًا لـه، حقُّهُ مـن المبحث الجادّ، والتـامّ، والشـامل، لأنّ الدينَ جملةُ عناصر، منها ما يخضـع

«للفلسفة»، ومنها ما تعجز «الفلسفةُ» نفسُها عن اللحاق به، حتّى تصِفَهُ.

٦. فلسفةُ الدين، أم الحِسُّ الدينيّ؟

الدينُ ارتباطُ المرءِ بمستويات متعدِّدة من الحقائق، نجدُها على صعيد التاريخ، (الحدث والذاكرة)، والفكر (التعليم والتحديد العقائديّ)، والإرث (الشفويّ، والمدوَّن، والعمرانيّ)، والحضارة (التطوّر والبنيان)، والإنسان (الحسّ والمثل)، والمؤسّسة (الخلافة والمركز)، والوجود (المصدر والمصير). وفي هذا الارتباط، كذلك، مستوياتٌ متعدّدةٌ من الكثافة تتراوح بين القانع الملتزم، والعازف المنصرف، وما بين الاثنين من مواقف تتفاوت بدرجات متباينة. زد أنّ تشابكَ عناصرِ الارتباط الأولى (الموضوعيّة)، والثانية (الذاتيّة) قائمٌ أيضًا، في وتيرة متّصلة، وأنّ عناصر ارتباطٍ أخرى لا تمتُّ بصلةٍ إلى هاتين الفئتين تنسلُّ إلى المجموعة برُمّتها، المدعوّة «دينًا»، وتُمليها ظروف بيئيّة وذهنيّات وعادات معقّدة. إنّ الاختبارات الفرديّة، «الدينيّة» بلا شكّ، والحركات «غير الدينيّة» المجاورة لها، والمعاصرة، والتقلّبات السياسيّة والاقتصاديّة خصوصًا، والاكتشافات والاختراعات على صعيد العالَمين الصغير والكبير، ليست بدون ريبة خالية من أدنى أثر، سرعان ما يصبُّ في المجموعة الكبرى. أمام هذا الحشد الضخم من العناصر الدينيّة، التي تؤلِّفُ معًا «الظاهرة الدينيّة»، لا بدّ من سؤال: هل من المتّفق، أوّلًا، عند المفكّرين العقلانيّين، أنّ هذه العناصر كلّها مركّبات «الدين»، بحيث إنّهم لا يغفلون كمفكّرين عن فعل أدناها أثرًا في صُلب غالبيّتها الأخرى؟ أم أنّ اختزال «الظاهرة الدينيّة» بحسٍّ دينيٍّ جائزٌ عندهم، بحيث إنّهم إذا حلّلوا هذا كشفوا نقاب تلك؟

لقد أصاب أوتو في كتابه «**القُدسيّ** *Das Heilige*»[1] في ناحيتين: الأولى في العنوان الفرعيّ، الذي جعلَه وراء العنوان الرئيس، إذ حدّد فيه مسار البحث بجملته؛ والثانيةُ في الفصول التي أكبّ فيها على دراسة الموضوع، كما جاء تحديدُه في العنوانين الرئيس والفرعيّ. أمّا الأبحاثُ التي أجراها في مِضمار التقصّي عن فكرة القدسيّ، راكنًا تارةً إلى نصوص الكتاب بعهدَيه القديم والجديد، ومُعرِّجًا تارةً على كتابات عددٍ من الروّاد والدعاة الروحيّين، ثمَّ منكفئًا طورًا إلى نصوصٍ شعريّةٍ متنوّعة، فلا تتّصف بالسِّمة الفلسفيّة، التي

(١) العنوان الكامل للكتاب في الألمانيّة هو *Das Heilige - Über das Irrationale in der Idee des Göttlichen und sein Verhältnis zum Rationalen*، وقد قام معهد المعارف الحكميّة بترجمة الكتاب ونشره. انظر، رودولف أوتو، **فكرة القُدسيّ – التقصّي عن العامل غير العقلانيّ في فكرة الإلهيّ وعن علاقته بالعامل العقلانيّ** (بيروت: دار المعارف الحكميّة، ٢٠١٠).

تتحلّى بها أجزاءٌ أخرى من الكتاب؛ ذلك أنّ النصوص نفسَها، التي استنبط منها خلاصات تؤيِّدُ مُدَّعاه، أغنى من أن تنقاد لتحليل فلسـفيٍّ بحت، له أصـوله ومنهجه. زد على هذا أنّ تحليل أوتو تلك النصـوص عينها هَجَرَ المضـمارَ الفلسـفيَّ في كثير من الأحيان، بل تخطّى أيضًـا الظاهرةَ الدينيّة إلى ظاهرةٍ أخـرى، تندرجُ بالأحرى تحت عنوان «ظاهرة التبليغ»، بما يشـتمل عليه التعبير من تقاليد شـفويّة، أو قراءاتٍ، وتقليد كتابـيّ. وكان أحرى به أن يلزم جانبًا، وينصرف عمّا ليس من شأنه.

إنّ ارتيادَ نصـوص «قدسـيّة»، والغايةُ تقصٍّ عن «القدسـيّ»، مغالطةٌ علميّة. أمّا سـبر «الفكـرة» في إطـار الظاهرة الدينيّـة، والغاية هي هي عينهـا، فمقاربة جديـرة بالاعتبار. فالنصوص «القدسيّة» أكثر من مجرّد فكرة، حتّى يتناولها الفكرُ بالتحليل، ومتشعّبة الميادين، حتّى يقبلَ دارسٌ بأن تنفرد بها محاولة فلسـفيّة، وأن تدّعي سبرَها. النصوص القدسيّة نتيجة مسـيرة روحيّـة، ووحي، وإيمان، وتاريـخ، وتقليد، لا تعبير عن رؤية، وتفكير، ومناقشـة، وانطباع، يمكن أن يُفصِّـل ناقدٌ في معطياتها، على أسـاس تصـوُّرٍ فلسـفيّ، مهما اسـتوى وصاب. وتتطلّب علومًا هيهات أن يزعم فيلسوف بأنّ الفلسفة وحدَها تعوّض عنها، حتّى تفسّر ما ورد فيها. قد يجد الباحث في تلك النصـوص صـدىً لما يحاول البرهان عليه، غير أنّ هذا لا يعني أنّ نظريَّتَهُ صـالحةٌ أيضًـا، عندما يريد منها تفسير النصوص، أو قل بالأحرى أنّ تفسـيره النصوص على وفق المعطيات الفلسفيّة التي بلغ إليها سويّ صائب. كم من عالم فقيه، وخبيرٍ متمرّسٍ في شـؤون التفسـير، زاغَ وضـلّ. ثمّ إنّ تاريخَ التفسـير حافلٌ بأسماءٍ مشاهير تسلّحوا بالفلسفة في تفاسيرهم، فتقاعسوا عن مرادهم خائبين.

٧. الواقع الدينيّ

إذا كانت هذه هي حال النصّ الدينيّ، في مواجهة الفلسفة الدينيّة، أبيًّا على المساس بتفسيره تفسـيرًا فلسـفيًّا، فما من شـأن الواقـع الدينـيّ، إذًا، عندما يصـبح بدوره مرومًا بدراسـة ومسـتهدفًا برمّته؟ إنّ الواقع الدينيّ، هنا، أشـمل وأكبر من الظاهرة الدينيّة، إذ يراد به أيضًا، علاوةً على ما تقدّم من ميادين له أعلاه، البِدع، والحركات المختلفة الدينيّة الطابع، والزيّ، والظواهـر الدينيّة الغريبة، والمناسـبات الدينيّة على امتداد السـنة. إنّ ما تبديه هذه الجوانب الدينيّـة المتعدّدة مـن الحسّ الدينيّ التقويّ، ومـن أفكارٍ حول «القدسـيّ»، يجعلُها كذلك ميدانًا فسيحًا لجولات الفلسفة الدينيّة فيها، وهو ما يفعلهُ أوتو في دراسته، مؤثرًا النصوص. ليس في هذا الأمر كبيرَ دهشة، إذ التقصّي عن الفكرة يذهبُ تلقائيًّا بالباحث إلى النصوص

القدسيّة أوّلاً، وإلى نصوص دينيّة أخرى، بعد ذلك. ولكنّ الدهشة الحقّة التي تنتاب القارئ لا تلبث أن تندلع كنارٍ آكلة، عندما يحتاط علمًا بأنّ غير العقلانيّ، حسب تعبير أوتو، وذا الغيريّة التامّة، القابع وراء الحسّ الدينيّ في ثنايا سُجُفٍ مُبهمة، يتزيّى في البِدع والحركات الدينيّة المُشار إليها للتوّ بزِيٍّ المناقض للعقل، وذي الغرابة المُستهجنة، بحيث إنّ السؤال يتسارع إلى الذهن حول غواية فكرة «القدسيّ» في مثل هذه الظاهرات الدينيّة.

خاتمة

ليس كلُّ ما في الظاهرة الدينيّة من واقعٍ بدينٍ قشيبٍ محض، إذ تدخُلُ إليها عناصرُ مُتنوّعة وعديدة، تختلطُ مع ما هو «قُدسيّ»، وتؤلِّفُ معه وحدةً مُتماسكة. إنّ الركونَ إلى العقل سبيلٌ سويّةٌ، في مثل هذه الحالة، إلى نزع الغثِّ من السمين، في ما يمكن أن نُطلق عليه اسم «دين»؛ والفلسفة وسيلة إلى ذلك، ناجعةٌ وفاعلة، طالما تلزمُ حدودَ البحث في المفاهيم، وتحليلِ الأفكار الدينيّة، والنبشِ عن تجذُّر النزعة الدينيّة في صلب الجِبلّة البشريّة. وتبقى ميدانًا يُركَن إليه، كلّما جرت مناقشة المسائل اللاهوتيّة، لشدّة منطقها، ومتانة النتائج التي تبلغ إليها، بفضل طرق الاستقراء والقياس والافتراض التي تعمد إليها.

وإذ إنّ لكلّ علم حدوده، وطرقه، التي تختلف عن حدود علم آخر وطرقه، تعجز الفلسفة عن اقتحام النصوص الدينيّة، وتحليلها وفقَ منهجٍ فلسفيّ، لمَا في النصوص الدينيّة من عناصر متنوّعة، كما أشرنا أعلاه. إنّ مجرّد قيامها بذلكَ يفقدها طابعها العلميّ، وتُجرَّدُ نتائجُها من كلّ شبه مصداقيّة.